Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 32:1 (1996)

العلوم الإسلامية والعلوم الإجتماعية
من التعارض إلى التوافق

محمد الغزالى

إن العصر الذى نعيش فيه يمتاز بغلبة تشكيلة حضارية تمّت نشأتها وتطورها فى المحيط الغربى وهى تستند إلى الأفكار التى تعتمد فى غالبها على نتائج العلوم الاجتماعية. كما يمتاز عصرنا هذا بالتقدم الهائل فى وسائل الاعلام التى تمثّل جناحا قويا للتشكيلة الحضارية الغربية وتستخدم على نطاق عالمى لترويج السنن الحضارية الغربية بين الأمم. فهذه القرية المصغّرة معرّضة طوعاً أو كرهاً إلى استلام رؤية كونية معينة هى وليدة التفكير الناتج من رؤية معرفية علمانية خالقة لمنهجية العلوم الاجتماعية وناجمة منها فى الوقت نفسه. وإلى جانب هذه التأثيرات الاعلامية، إن المناهج التربوية المتبعة فى عالمنا الاسلامى مازالت مطبعة بطابع هذا التفكير ومصوغة فى أصنافه.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

وتطورت هذه العلوم الاجتماعية فى سياق التجربة التاريخية التى مرّ بها المجتمع الغربى ـ ومن أهم مزايا هذه التجربة الصراع الطويل بين رجال الكنيسة وأصحاب العلم والمعرفة الذين حملوا لواء حرية العلم واستقلال الفكر فى المحيط الاجتماعى الغربى ـ فكان تحرر الفكر الغربى من سلطان الكنيسة بنسبة تقوقع الكنيسة وانهزامها أمام أئمة الفكر والمعرفة الذين طغوا على الكنيسة وعلى كل مادعت اليها. وهذا الكفاح ضد الكنيسة قام جنبا الى جنب مع الكفاح ضد الامبراطورية والطبقات الموالية لها، فكان نيل الانسان الغربى لحقوقه وتطور الفكر السياسى الغربى ناتجا من الكفاح ضد الأباطرة كما كان تحرر الفكر والعلوم نابعا من الكفاح ضد الكنيسة.

فكانت المكاسب التى حققها المشروع العلمى الغربى فى دراسة الطبيعة والكون وفى اكتشاف القوانين العلمية التى تخضع لها مظاهر البيئة والطبيعة ثمرة هذا الصراع التاريخى والتى اعتزبها الغربيّون أيما اعتزاز لأنها كانت تمهيدا للنهضة الأوروبية واستنارتها وازدهار حضارتها وغلبتها فى العالم. فرسخ بطبيعة الحال فى العقلية الغربية الاعتقاد الجازم بأن الدين كما اختبره الغرب، لايتمشى مع النهضة والتقدم المادى والاكتشاف العلمى. واستمر العلماء الغربيون على هذا الاعتقاد وواصلوا كفاحهم ضد الكنيسة لابعادها عن المشروع الحضارى الانسانى حتى بعد أن نجحوا فى تحقيق حرية العلم والفكر من هيمنة السلطات الكهنوتية. فرفض الفكر الغربى

تدريجيا، باسم حرية العقل الانسانى كل ما كان يستند إلى الدين من أفكار وقيم كمسلّمة مقبولة أو حتى كقضية علمية مطروحة مما أدى إلى تصفية المضمون الدينى من التعليم والسياسة والتشريع بنسبة تقوية الحركة العلمانية فى حياة الانسان والمجتمع الغربى.

وقد كان تحرر الفكر الغربى من سيادة الدين وانتقاله الى الموقف العلمانى الكامل عبر مراحل. فكانت الانجازات التى حققها الغربيون فى مجال دراسة الطبيعة وظواهرها نتيجة لتطبيق المنهج الاستقرائى الذى اقتبسه الغرب من العلماء المسلمين كما اعترف به المنصفون من مؤرخي الغرب[١]. وهذه الانجازات وما تولّد منها من انتصارات ومنافع مادية عاجلة زادتهم ايمانا بهذا المنهج وصحة تطبيقه على جميع مجالات المعرفة. وقد جاءت بين المرحلتين مرحلة عارضة كانت فيها مواجهة الفكر الكهنوتى باسم العقلانية التى ربما أغرم بها الغربيون بتأثير من التيارات العقلية الاعتزالية وغيرها التى كانت تكتسح الحياة العلمية الاسلامية منذ مطلع القرن التاسع الميلادى وما بعده[٢]. ولكن سرعان ما أدرك الفكر الغربى نقصان هذا الاتجاه العقلانى كمنظومة علمية لأن العقل ومقاييسه لاتكتفى بذاتها بل تعتمد على إطار نظرى معين، وكان هذا الاطار النظرى متوفرا للمسلمين فى توجيهات الوحي الالهى ولم يكن مثل هذا الإطار النظرى الواضح باقيا عندهم لخروجهم على الكنيسة ومعتقداتها ومعطياتها. فكانت نتيجة ذلك تحول التأكيد من العقل والجدليات المنطقية إلى نفس الأدوات الاستقرائية التى اعتمدوا عليها

فى دراسة الطبيعة أى انتقلوا تدريجيا من العقلانية إلى استخدام المنهج التجريبى أو ـ على الأصح ـ إلى الجمع بينهما فى دراسة الظواهر الاجتماعية. وكان أيضا من أسباب هذا الانتقال الصدارة التى حصلت للعلوم الطبيعية بين جملة المعارف والتى سميت فى البداية بالفلسفة الطبيعية واعتبرها فرانسيس بيكن (١٦٢٦) أفضل مصادر المعرفة[٣].

وجاء اختيار المنهج الاستقرائى فى حياة المجتمع الغربى بتقدم هائل أذهل الانسان الغربى الذى كان يألف استغلال الاباطرة واستخفاف القساوسة منذ قرون مما فتح المجال للتقدم السريع فى الصناعات والتقنيات والتكاثر فى المنافع والمرافق. وازداد فى غضون هذا التوسع المادى البحث عن المواد الأولية والموارد الطبيعية فى العالم الذى أدى إلى التسابق فى الاستعمار كما تم فى هذه المرحلة اكتشاف أمريكا وبدأت المنافسة بين الأمم الأوروبية فى كسب أسباب القوة وجاء تبرير هذه المنافسة والأنانية الاجتماعية وترسيخها من خلال نظريات القومية والاقتصاد الرأسمالى الحرّ.

فالرحلة العلمية الغربية التى بدأت من مقاومة السلطة المطلقة للكنيسة انتهت إلى اتباع المنهج التجريبى كمصدر مطلق للمعرفة و كما ذكرنا من قبل جاءت بين المرحلتين مرحلة انتقالية تطورت فيها العلوم الانسانية فازداد التأكيد فيها على كل مايحقق مصلحة الانسان. والعلم أصبح معياره العقل والوجدان والفكر الانسانى المركب منهما وكانت غاية العلم بناء الشخصية وتكميل الملكات

الانسانية العقلية والفنية والأدبية والأخلاقية لكى يكون الانسان كائنا نافعا للمجتمع فكان بعض الأفكار المرتبطة بالتراث الدينى الفائت مازالت باقية إلى حد ما فى هذه المرحلة فكون العلم وسيلة لبناء الشخصية مثلاً يتضمن الاعتراف بأن الانسان ينقصه شيئ يكتمل بالمعرفة. فالمعرفة أرفع من الانسان وهي وسيلة لغاية سامية وهى الوصول إلى الحق فاذا عرف الحق وجب للانسان العمل به والتمثل له والتخلق بالاخلاق التى توحى بها المعرفة لكى تكتمل بها شخصية الانسان. والفن كان يمثل حقيقة ورائية خارجة عن الوجود المادى والظواهر الطبيعية وبالفن حاول الفنّان تعبيره عن بعض الجوانب لهذه الحقيقة الورائية المخفية فالخصائص المذكورة لهذه المرحلة الانتقالية بين العهد الكهنوتى والعهد التجريبى تشير إلى بقاء معان ميتافيزيقية ومفاهيم ذات أصل دينى الى حدّ كبير.

ولكنه فى نفس الوقت استمر اغرام الفكر الغربى بالحرية على الصعيدين السياسى والعلمى. وكانت نتيجة ذلك أن اعتبر المجتمع الغربى تدريجيا مبدأ الحرية الكاملة المحك الوحيد لتقييم كل شيئ ــ فى مجال الفكر والسلوك الأخلاقى من التوجيه الدينى ــ وفى مجال الاجتماع والسياسة من استبداد الملوك والاباطرة.

وانطبع تصور التاريخ أيضا لدى المفكرين الغربيين بهذه التجربة التى حصلت فى المجتمع الغربى فى صراعه مع السلطات الكهنوتية والملكية. فالتاريخ الانسانى كله صار منقسما عندهم إلى عهود ثلاثة على سبيل التلازم كأنهم قالوا: حيثما وجد اجتماع

انسانى فى حيّز التاريخ فثمة هذه العهود الثلاثة أي: (١) العهد الابتدائى الذى يرادف أو يصادف العهد الدينى حيث تحتلّ العقيدة بالغيبيات والرسوم الدينية المكانة المركزية فى الحياة، ثم يكون لزاما على التاريخ أن يتحول إلى (ب) عهد العقلانية والميتافيزيقا ومن خلال هاتين المرحلتين الحتميتين ـ كما يمرّ الفرد بالطفولة والمراهقة لكى يصل إلى الشباب، كذلك يدخل التاريخ الانسانى فى نهاية المطاف ـ (ج) عهد الاستنارة والنهضة والمعرفة العلمية ـ أو كما قال آخرون منهم ـ يمرّ المجتمع الانسانى بعهود الهمجية والدين والأبطال قبل أن يترقّى إلى المرحلة العلمية التى هى قمّة الثقافة والحضارة الانسانية.

ومن العوامل التى ساعدت نزعة التحرر من سلطان الدين ـ أو على الأصح ـ توصل الفكر الغربى فى بحثه عن بديل للرؤية الكونية الدينية، إلى اعتناق بعض النظريات الخطيرة عن أصل الانسان والحياة ومن أهم هذه النظريات فكرة التطور التى قدّمها دارون وأصحابه. ويمكن أن نقول أن الفكر الغربى بعد أن تبرّأ عن فكرة الدين أساسا، تقوّى عنده الاستعداد فى تلك المرحلة التاريخية، أن يرحّب بكل رأي أو نظرية تساعده على اقامة بدائل لكل ما سبق رفضه من معطيات الدين وذلك لملأ الفراغ الذى نشأ من تدهور الكنيسة وتقهقر رجالها أمام السيل الجارف للعلمنة.

فالترحاب الذى لقيه تصور التطور وما شابه ذلك من قبل الأوساط العلمية الأوروبية كان تجاوبا طبيعيا من الفكر الطاغى على

الرؤية الدينية للانسان والحياة فكان يهمه آنذاك ايجاد نظرية علمية تعوّض عن الدين فى تفسير الوجود الانسانى والظواهر الطبيعية بدون وساطة الاله والآخرة والغيبيات. وهكذا تعاطف الفكر الغربى مع نظريات سكمند فراؤيد الذى قام بتصفية المحتوى الروحى من شخصية الانسان وتسويته بالحيوان فأكد بذلك هذا التيار الفكرى وساعده على تفسير المخلوق البشرى بدون الخالق المطلق وبدون أي غاية سامية. فكما يقول الفيلسوف الوجودى الفرنسى البيركاميو أن كل شيئ يكون صحيحا وكافة المشاكل العلمية سوف تنحل إذا أخرج الاله من خطة هذا الكون لأنه مع التمسك بفكرة الخالق المطلق خارج التجربة الانسانية ووراء دائرة العقل الانسانى، لايمكن لأي فكر أن يقرّ مبدأ لحرية المطلقة للانسان. أما بعد الجحود بالاله، "فيستريح" الانسان من عهدة التكليف ويبرّئ نفسه من ذمّة الاخلاق المبنية على أية قيم دائمة أومثل ثابتة.

فتدرج الفكر الغربى فى رحلته المعرفية من الرؤية الدينية الموجودة فى أوربا خلال القرون الوسطى إلى استبداد التجربة واستقلالها بالمعرفة واكتفاءها بالوصول الى الحقيقة فرفض كل أمر لايستند إلى المشاهدة بالحواس فلم يبق نتيجة لهذا الموقف أي أساس لقيم أخلاقية ثابتة وصار كل شيئ من هذا القبيل نسبيا أو شخصيا أو ذاتيا غير خاضع لأصول محكمة وضوابط معيّنة يتفق عليها الجميع ويستند اليها كل ما يضبط السلوك الانسانى من قوانين أخلاقية أو بتعبير آخر حتى تكون القوة مع جميع أشكالها خاضعة

لتحكيم الأخلاق كما جاء بيان هذا المبدأ على لسان أبى بكر الصديق رضى الله عنه، أن القوي فى المجتمع ضعيف حتى يؤخذ منه الحق والضعيف فيه قوي حتّى يستعاد له حقه.

فتطور الفكر العلمانى الغربى عبر مراحل زمنية وتجارب اجتماعية أسهم فى بلورتها طائفة من المفكرين إلى اعتبار هذا العالم عالما آليا يسير تلقائيا بطريقة ميكانيكية بدون تدخل الارادة الالهية وبدون أي اعتراف بحاجة الانسان إلى الالتزام بمقتضيات هذه الارادة. دما تم فى هذا الاطار الفكرى اعتبار الانسان جزءا لايتجزّأ من هذا العالم المادى خاضع كغيره من أجزاء العالم الطبيعى إلى قوانين العملية الآلية ـ فكما يتم تفسير العالم المادى بمعرفة القوانين التى تكشف الربط بين الأسباب والمسببات فهكذا يمكن فهم السلوك الانسانى بمراقبة تجاوباته وردود فعله إزاء الحوادث والظروف أو الأوضاع الاجتماعية التى يتفاعل معها الكائن البشرى ومن خلال هذه المراقبة وحدها يمكن استنتاج القوانين القطعية التى توضّح هذا السلوك وتجعلها قابلة للتنبوء أو صالحة لما يسمى بالهندسة الاجتماعية.

فكما يمكن فهم الطبيعة وإدراج نتائج المشاهدة والتجربة فى ظواهرها واكتشاف القوانين التى تسيّرها كذلك يمكن لنا أن نفهم كافة الظواهر الاجتماعية التى تبرز فى حيّز التاريخ بملاحظة الأفعال والتجاوبات الانسانية واستخراج القوانين العلمية منها، أو كما يمكن لنا فهم أنواع السلوك الحيوانى بحشد المعلومات الحاصلة من مراقبة

أعمالها وعاداتها كذلك يمكن تفسير كافة أشكال السيرة الانسانية على اختلاف نوعياتها بجمع المعلومات المبنية على المشاهدة وتحليلها وحدها فلايحتاج هذا العالم بما فيه الانسان الى الرجوع إلى أي مصدر خارجي وراء التجربة والمشاهدة لأجل فهمه وتفسيره.

فنقطة الاختلاف بين ماهو انسانى وغير انسانى ـ من منظور علمانى ـ هو اختلاف فى الدرجة لا فى النوع، فى الكم لا فى الكيف، ومن ثم يمكن تفسير الانسان ـ كل الانسان بما هو غير انسانى أو من خلال القوانين المادية والطبيعية العامة التى تسرى على كل الاشياء وكافة الظواهر(٤).

ففى ضوء هذه المنهجية "العلمية" لتفسير السلوك الآلى للانسان صار علم النفس مثلاً عبارة عن "مجموعة من الدوافع النفسية التى تترجم نفسها إلى سلوك يمكن فهمه وتفسيره عن طريق نماذج تحليلية مادية تفترض أنه فى نهاية الأمر جهاز عصبى وغدود وخلايا وغرائز ودوافع بيولوجية...

... فالعلوم الاجتماعية الآن هى علوم ترصد الحقائق المحسوسة المادية ومن خلال رصد الحقائق المادية وتجميعها تصوغ الفرضيات فالنظريات فالقوانين العامة التى تشكل أعلى درجات المعرفة من منظور هذه العلوم"(٥).

ولكن هل ينبغى لنا نحن المسلمين تجاهل هذا الرصيد الهائل من المعرفة والمعلومات والآراء تماما بحيث لانسمح لأنفسنا أى

فرصة للاطلاع على نتائج العلوم الاجتماعية وأن لاندخل فى أى حوار أو نقاش مع أصحابها، بالرغم من غلبة الحضارة الغربية التى تستند الى هذه العلوم فى عالم اليوم، وبالرغم من نفوذ هذه العلوم ونتائجها فى عقليات المسلمين ونفسياتهم بواسطة الاعلام والتربية كما أسلفنا، والمعلوم أن أبناء الأمة الذين يتربّون على المناهج التربوية المطبعة بهذه العلوم تتكون لديهم عقلية متأثرة برؤيتها الكونية وتغيّر موازين فكرهم من معايير الاسلام الى مقاييس هذا الفكر فكثيرا مايرون المعروف منكرا والمنكر معروفا، وتنقلب شخصياتهم من أسوة الاسلام إلى قدوة الغرب، فهلا آن الأوان لتوجيه هؤلاء الشباب والاجيال الذين يرتبط بهم مستقبل هذه الأمة فنخوض هذا المجال العلمى لكى نقوم بدراسة هذه العلوم وتقييم مقدماتها ونتائجها لنتخذ من ادّعاءاتها موقفاً اسلاميا صحيحا ونقوم ببيان هذا الموقف بلغة هذا العصر معترفين فى نفس الوقت بأهمية هذه العلوم وفائدتها العلمية بكل تسامح ورحابة صدر؟

ولايجوز أيضا أن نتقبل هذه العلوم ونقلد الأفكار والاتجاهات السلوكية التى تنبثق منها تقليدا أعمى وننشرها بين شبابنا وأجيالنا المسلمة بدون أن نعرّضها الى دراسات انتقادية جادة تميّز صحيحها من سقيمها ونافعها من ضارّها وهذا ما فعله السلف لما واجه المسلمون الأوائل تيّارات الفكر والمعرفة اليونانية فلم يمنعوا الاقبال على هذه العلوم والاطلاع عليها وكان بمستطاعهم ذلك فى تلك الأيام. كما لم يتجاهلوها تماما ولم يسمحوا بجميع

مقدماتها وأساليبها الجدلية ونتائجها أن تنشر وتقبل بين الأوساط الأكاديمية الاسلامية بدون أى فحص ونقد. بل واجهوها مواجهة شجاعة معتمدين على انفسهم واثقين من سلامة فكرهم معتزّين برسالتهم الحضارية فلم يشعروا بخطر الاندماج الكامل فى حالة التعامل مع العلوم والأفكار الأجنبية ولا وجدوا من اللازم الحيلولة دون انتشارها بين المسلمين لحماية عقيدتهم وأخلاقهم وكيانهم الثقافى.

ويجب الانتباه فى نفس الوقت، إلى أن هناك حالة نموذجية مثالية تفترضها الرؤية المعرفية الغربية، وهى منبثقة من واقع التجربة التاريخية للمجتمع الغربى وهى تشتمل على مجموعة المعايير والمقاصد التى تسود المجتمع الغربى العلمانى المادى الليبرالى الرأسمالى الديموقراطى ـــ فمع الادعاء بالموضوعية المطلقة فى منهجية العلوم الاجتماعية يبقى البعد الذاتى عاملا مؤثرا لاينفك عن الباحث الاجتماعى كما وجد الاعتراف بذلك لدى بعض العلماء الغربيين أنفسهم وخاصة لدى المنتمين إلى مدرسة "مابعد الحداثة". بل على الاصح لايمكن لأى مبادرة علمية اكتشافية انسانية أن تتحرر عن الذاتية فعلم الانسان مركب من الذاتية والموضوعية والبعد الذاتى هنا هو ايمان الباحث الاجتماعى الحديث بأن الحالة المثالية فى أي مجتمع انسانى هى الحالة التى وصل إليها المجتمع الغربى عبر قرون وولاءه المطلق لكل من يشترك معه فى الايمان بهذه الطريقة المثلى وهذه الذاتية هى تؤثر بصورة فعّالة فى نتائج البحث ـ فأمامنا

مجموعة من نتائج مصبّغة بصبغة الايمان بحقانية هذه القدوة الاجتماعية. فالسؤال المطروح هو: أين نقف من هذه القدوة التى تختلف اختلافا جوهريا مع القدوة المثالية التى أقامها الاسلام وجسّدها فى التاريخ فى أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة المجتمع الذى انشأه الرسول صلى الله عليه وسلم بتوجيه الوحى الالهى؟

وتزداد أهمية هذا السؤال فى سياق مشكلة التربية الاسلامية المعاصرة فأمامنا مجموعة من المعارف تطلق عليها العلوم الاسلامية التى نشأت وتطورت وتشعبت فى محيط حضارى معين وفى بيئة اجتماعية خاصة وتشربت بروح اسلامية سرت فى هذه العلوم وجرت فى مناهجها وحافظت على وحدتها ونسقها الفكرى وغائيتها واستمراريتها التاريخية ـ وهى علوم انبثقت من جرّاء التجربة النبوية فى تلقى الرسالة الخالدة من السماء وتوضيح اطارها التطبيقى وترويج قيمها ومثلها الروحية والأخلاقية فى الواقع الفردى والاجتماعى وايجاد امكانيات فكرية وعملية لبناء حضارة اسلامية متكاملة قامت باداء دورها التوجيهى الفعّال فى المسيرة التاريخية للحضارة الانسانية، فاذا كانت العلوم الاجتماعية الغربية ناتجة من التجربة التاريخية للمجتمع الغربى فالعلوم الاسلامية نابعة من التجربة التاريخية للحضارة الاسلامية ـ فكما وجّه الوحى والارشاد النبوى التيّار التاريخى الذى ساعد المسلمين الأوائل على بناء الحضارة الاسلامية وتحقيق كافة الانجازات التى تمّت فى إطار الرسالة

الحضارية للاسلام، كذلك وجدت مجموعة من الاوضاع والظروف التاريخية أسهم فى خلقها قادة الفكر والمعرفة الغربية عبر القرون، والتى ساعدت شعوب الغرب على بناء الحضارة الحديثة فى مابعد العهد الصناعى والتى تقوم على أركان وأعمدة مفاخر التراث الغربى فى العلوم والفكر والفن والسياسة والاقتصاد والاجتماع... الخ، فهى بمجموعها تشكل أركان هذه الحضارة العلمانية المادية وأعمدتها. فكل ما يشتمل عليه علم السياسة مثلا إن هو إلا تنظير للتجربة الغربية فى السياسة من الصراع بين الحاكم والمحكوم الى انتزاع الحقوق من الملوك والاباطرة، وعلم الاقتصاد هو تنظير لماتمّ فى الحياة الغربية من تجارب ومعاملات اقتصادية وما هى كلها الا تنظير لاحق لمثال سابق، فكما تنشأ اللغة أولا وتتوسع وتتطور فيها الصيغ والتعابير وتترقى فيها المعايير البلاغية ثم يأتى بعد ذلك أشخاص أولو عبقريات لغوية خاصة يقومون باستخراج قواعد النحو والصرف ومقاييس اللغة ومعايير البلاغة من استعمال أهل اللسان الذى يعتبر هو العمدة فى علوم اللغة، فكذلك علاقة العلوم الاجتماعية الحديثة بالتجربة الاجتماعية الغربية. فهذه العلوم راسخة فى هذه التجربة وهذه التجربة لصيقة بها. وكذلك العلوم الاسلامية تقف نفس الموقف من السيرة النبوية صلى الله عليه وسلم والوظيفة التاريخية التى قام بأداءها الرسول صلى الله عليه وسلم فى تلقى الهداية من الله وتعليمها للمؤمنين وتزكيتهم وتربيتهم على أصولها وانشاء مجتمع انسانى عادل روحى مثالى طبقا للهداية الالهية وتحقيقا لمقاصد

الخلافة وهذا ما يفسر لنا أهمية ملاحظة الامام ولى الله الدهلوى المهمة فى مقدمة كتابه: "حجة الله البالغة" عن صدارة علوم الحديث فى كافة المعارف الاسلامية:

"إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذى يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين من قول أو فعل أو تقرير فهى مصابيح الدجى ومعالم الهدى وبمنزلة البدر المنير من انقاد لها ووعى فقد رشد واهتدى وأوتى الخير الكثير ومن أعرض عنها وتولىّ فقد ضلّ وغوى وما زاد نفسه إلا التخسير"(٦).

ولذلك لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم موجودا فى التاريخ وكان يقوم بأداء مهمته فى بناء الحضارة وتوجيه المجتمع بتعليم الكتاب والحكمة وتربية المؤمنين وتزكيتهم خلال ٢٣ سنة لم يكن الناس بحاجة الى العلوم الاسلامية التى تطورت فيما بعد، كما لم يكن العرب الأوائل من أهل السليقة اللغوية بحاجة الى سبيويه والفرّاء لتعلم اللغة ولمعرفة الأساليب البيانية فيها.

فإذا كان هذا هو الفرق بين منبع العلوم الاسلامية ومصدر العلوم الغربية فما هو الموقف الاسلامى الأنسب ازاء هذه المشكلة؟ أى مشكلة إدخال كل من المعرفتين فى منهج تربوى اسلامى موحّد يهدف الى تحقيق غايات الحضارة الاسلامية والاستفادة فى سبيل ذلك من مصادر الحضارة الأخرى على شروط حضارتنا وطبقا

لمقاصد ديننا؟ ولا يمكن طبعا ولا يجوز لأحد أن يقول "تجاهلوا هذه العلوم واكتفوا بما عندكم". فإن هذا غير صحيح وغير مطلوب لعدة أسباب لاتخفى على أحد. ولكن المطلوب كما تم عليه شبه الاجماع فى عصرنا هو ايجاد المنهجية للتعامل الصحيح مع العلوم الاجتماعية بحيث نجعل الاستفادة منها تكون مطابقة لمقاصد الدين الاسلامى فيجب أن نشترى هذه السلعة بشروطنا وبمقاييسنا لا بشروط البائعين ومقاييسهم. ومن أهم الأسئلة التى تطرح فى هذا الصدد هو هل يمكن التوفيق بين المعرفتين؟ المعرفة التى تقوم على دراسة الضوابط والقيم والمثل التى فرضها الله تعالى على عباده والمعرفة الاجتماعية التى لاتبحث عن أى ضوابط أو قيم لذاتها بل هى تبحث عن الوان السلوك الاجتماعى واشكاله وعوامله كما تظهر هى فى واقع الحياة البشرية ـ فلا تشتغل هذه المعرفة بما ينبغى أن يكون سلوك الانسان بل هى تبحث عما يكون سلوكه فى واقع الأمر لكى يمكن التنبؤ عمّا يتوقع حدوثه فى المستقبل.

فلا يسع الفكر الاسلامى المعاصر أن يتجاهل العلوم الاجتماعية الغربية كما لايمكنه أن يقلدّ هذه العلوم تقليدا أعمى. وايضا ينبغى أن لايفوتنا أن هذه العلوم ونتائجها ليست خالية عن الفائدة تماما. فكثير مما وصل إليه هذه العلوم فى دراستها للظواهر الاجتماعية ورصد المعلومات عنها وتحليل السلوك الانسانى على أساس هذه المعلومات، قد يكون مفيدا لنا من ناحية كون هذا السلوك الانسانى مطابقا أو غير مطابق للضوابط التى نؤمن بها ـ

فالمعلوم أن الدين الاسلامى هو أساسا يعنى بايجاد التوافق بين إرادة الانسان وحكم الله ـ والانسان لايمكنه أن يحقق الفلاح فى العاجلة والسعادة فى الآجلة إلا بنسبة هذا التوافق، وما لايخفى على أحد أن الانسان مع ادعاءه بالايمان واقراره بالالتزام بشرع الله، كثيرا ما ينحرف عن الصراط السوي ويضل فى متاهات الأهواء والشهوات والمصالح العاجلة التى توسع الفجوة بين إرادته ومرضاة الله. فمعرفة الدوافع التى توجه سلوك الانسان، والنزعات التى تقود الانسان الى جهات مختلفة، هى ينبغى أن تشكل مجالا رئيسيا للدراسات الاسلامية. فالحاجة ماسة الى استعراض كل ما يتوفر لدى العلوم الاجتماعية الغربية من معلومات لكى نستفيد من نتائجها التى تفسر دوافع السلوك الانسانى ولو كان هذا التفسير جزءيا ناقصا.

فعلى سبيل المثال إذا كان الاسلام يهدف إلى توجيه الانسان ـ فردا ومجتمعا ـ إلى سلوك اقتصادى معين يؤدى إلى نيل غاياته فى اقامة العدل الاجتماعى الكفيل بتحقيق الفلاح فى الدنيا والسعادة فى الآخرة، فالباحث الاسلامى لابدله أن يعرف الأحوال والظروف والأوضاع والعوامل التى تؤثر عادة على سلوك الانسان والمجتمع الاقتصادى لكى يتوصل من خلال هذه المعرفة إلى ايجاد السبل لتوفيق هذا السلوك بغايات الاسلام فسرعان ما يرغب أحد فيماذا ينبغى أن يكون سلوك الانسان فى أي فرع من فروع النشاط الانسانى يهمّه فى نفس الوقت الاطلاع على ما هو السلوك الموجود أو المتوقع بالفعل.

وإذا كان المعلم الاسلامى يبحث عن الطرق والوسائل التى يمكن استخدامها لانجاح عمليته التربوية فى إطار برنامج تعليمى اسلامى يهدف إلى تكوين شخصية اسلامية وتشكيل عقلية موافقة لمقاصد الاسلام ونفسية مندفعة إلى نيل غايات الحضارة الاسلامية فى هذا الكون، فلا بأس بالاستفادة من خبرات معلم فرنسى أو من تجارب مدرّب ايطالى فى جوانب وظيفية من هذه العملية التعليمية ولو كانت أهداف المعلمين الفرنسيين أو الايطاليين النهائية متعارضة أو مغايرة لأهداف المعلم الاسلامى.

فيمكن للعلماء المسلمين المضطلعين فى المعرفة الاسلامية أن يتعاملوا مع رصيد المعلومات المتوفرة لدى العلوم الاجتماعية الغربية، كمواد أولية ينفع استخدامها فى المرحلة العارضة لتوضيح جوانب تتصل بالنزعات السلوكية الفعلية فى حياة الفرد والمجتمع التى يراد تطبيقها بضوابط الاسلام ويجب فى نفس الوقت البحث الدقيق عن كل ما يتوفر فى العلوم الاسلامية ـــ علوم القرآن والسنة والفقه والأصول والكلام ـ من التوجيهات أو المفاهيم التى لها صلة ما بالقضايا التى تدرس فى العلوم الاجتماعية. والخطوة الأولى فى هذا الصدد ـ التى ظهرت البوادر إلى اتخاذها فى الأوساط الأكاديمية الاسلامية ـ هو اعادة تصنيف محتويات العلوم الاسلامية لكى تكون توجيهات الاسلام والفكر الاسلامى فى متناول الباحث الاجتماعى المسلم ويمكنه أن يقارن بين نتائج العلوم الاجتماعية الغربية وبين هذه التوجيهات فى قيامه بنقد هذه النتائج والأخذ والرد.

وكما قلنا آنفا، إن الاستفادة التى نقترحها من العلوم الاجتماعية الغربية هى بمثابة مرحلة عارضة مؤقتة ــ لأن الحالة المثالية هى أن ينطلق إنشاء العلوم الاجتماعية من الرؤية الكونية الاسلامية وأن تؤسس منهجية البحث فيها على مقدمات اسلامية يتم استنباطها من ضوابط القرآن والسنة ومسلماتهما فى تصور الانسان والحياة والحقيقة ــ ولكن لايمكن تعطيل النشاط العلمى والفكرى لاقامة الحضارة الاسلامية فى انتظار الحالة المثالية. والحالة المثالية لايمكن حصولها إلا عند قيام الحضارة الاسلامية وأداءها دورا رائدا قياديا فى التاريخ. فمن البديهى أنه لايمكن نشأة العلوم والفنون وتطور الأفكار والنظريات المقتبسة من مناهل الهدي الالهى ومنابع السنة النبوية المطهرة، إلا إذا تم تطبيق الأحكام الدينية وتحكيم القيم والمثل الاسلامية فى حياة الأفراد والمجتمع؛ فنهضة العلوم الاسلامية مرتبطة الى حدّ كبير بالتنفيذ العملى لمبادئ الحياة الاسلامية؛ وكما لايمكن أن تحيى روح الاجتهاد فى فقه الشريعة بدون تطبيق الشريعة فى حياة الناس، كذلك لايمكن انشاء العلوم الاجتماعية بروحها الاسلامية الحقيقية إلا إذا قام المجتمع الاسلامى فى واقع حياة الناس قياما حقيقيا وأقبل العلماء والمفكرون على دراسة القضايا الاجتماعية من منطلق الرؤية الكونية الاسلامية وفى الاطار المرجعى للاسلام. فلو لم يحصل فى أوربا أي تغير اجتماعى، أو تحوّل سياسى أو نشاط اقتصادى من منطلق رؤية كونية معينة، لما أمكن لعلوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد أن تنشأ أو تتطور كما نشأت

وتطورت فعلا. ولذلك كثيرا ما نسمع الانتقادات الموجّهة ضد الاقتصاد الاسلامى أنه شكل معدل للاقتصاد الرأسمالى الغربى وأن كثيرا من نتائجها فى أصلها مرتبطة بمسلّمات الفكر الاقتصادى الرأسمالى الغربى مع أن المطلوب هو أن تنطلق كافة نظرياتها وافتراضاتها ونتائجها وأشكالها واستراتيجياتها من مسلمات الحضارة الاسلامية ـ فلعل السبب الرئيسى فى وقوع الاقتصاد الاسلامى فى أزمة الهوية ـ هو عدم توفر البيئة الاقتصادية العملية كما يتصور نشأتها فى سياق الحضارة الاسلامية وحينما تبرز هذه البيئة إلى السطح وتترجم المبادئ والنظريات والأهداف الاسلامية إلى واقع النشاط الاقتصادى بالجدية والفعالية المطلوبة سوف يستعيد الاقتصاد الاسلامى هويته المستقلة بالمعنى الحقيقى.

وهكذا سوف يتم إنشاء العلوم الاجتماعية جنبا إلى جنب مع إحياء الرؤية الكونية الاسلامية حينما تصحو الحضارة الاسلامية من سباتها وتخرج من عطلتها وعزلتها لتقوم بأداء وظيفتها التاريخية بتطبيق المشروع الاجتماعى الاسلامى بكل أصالته وفعاليته وديناميكيته وشموله فى واقع الحياة الانسانية.

هـــوامـش

١- انظر على سبيل المثال روبرت بريفو "The Making of Humanity" ، لاهـور، ١٩٨٠م.

٢- انظر مقالة الأستاذ ايم ايم شريف بعنـوان: "Influence of Muslim Thought on the West" فى موسوعته : "A History of Muslim Philosophy" كراتشى، ١٩٨٣م، المجلد الثانى، ص ص ١٣٤٩-١٣٨٩.

٣- راجع مناقشة مورتمر جى ايدلـر لتقسـيم المعـارف عنـد فرانسـيس بيكـن فـى كتابه: "A Guidebook to Learning" ، نيو يورك ١٩٨٦، ص ص ٥٢-٥٧.

٤- راجع مقـال الأسـتاذ الدكتـور عبدالوهـاب المسـيرى بعنـوان: "العلمانيـة رؤيـة معرفية"، مجلة الدراسات الإسلامية، عدد الخريف ١٩٩٤م.

٥- نفس المصدر.

٦- انظر **حجة اللّه البالغة**، للامام ولي اللّه الدهلـوي، طبعـة القـاهرة بتحقيـق سـيد سابق، (تاريخ الطبع غير مذكور)، المجلد الأول ص ٢.